الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- :

باقٍ فَلاَ يَفْنَى وَلاَ يَبِيدُ وَلاَ يَكُونُ غَيْرَ مَا يُرِيدُ

مُنفَرِدٌ بِالْخُلْقِ وَالإِرَادَهْ وَحَاكِمٌ جَلَّ بِمَا أَرَادَهْ

الشرح:

لا يزال حديث المصنف -رحمه الله تعالى- عن النوع الأول من أنواع التوحيد وهو التوحيد العلمي أو توحيد المعرفة والاثبات وسبق المصنف -رحمه الله تعالى- أن ذكر أولاً في بيت واحد تعريفاً جامعاً لهذا النوع من التوحيد ثم أخذ يفصا تفاصيل عظيمة ونافعة تتعلق بهذا النوع ، يقول في هذين البيتين :

« **باقٍ** » أي الله الذي له البقاء الآخر الذي ليس بعده شيء كما قال جل وعلا: ﴿ **كل شيء هالك الا وجهه** ﴾ ﴿ **كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام** ﴾

فهو باق أي له البقاء ، كما أن ليس لأوليته ابتداء ؛ وكذلك ليس لآخريته انتهاء فهو باق -جل وعلا -

« **فَلاَ يَفْنَى وَلاَ يَبِيدُ** » وهذا فيه توضيح لمعنى الباقي أي الذي لا يفنى ، الفناء للمخلوقات ام هو -سبحانه وتعالى- يفني ولا يفنى كما قال الله -عز وجل- ﴿ **كل من عليها فان ويبقى وجه ربك** ﴾ فهو لا يفنى ولا يبيد ، وهذا معنى الباقي ومعنى الآخر وقد سبق ذكر تفسير النبي-صلى الله عليه وسلم – لهذا الاسم قال: « **أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء** » وقوله -رحمه الله-: « **وَلاَ يَكُونُ غَيْرَ مَا يُرِيدُ** » أي لا يكون في ملكه وكونه -سبحانه وتعالى- ومخلوقاته غير ما يريد أي الشيء الذي يريده –تبارك وتعالى-« **لاَ يَكُونُ غَيْرَ مَا يُرِيدُ** » أي لا يكون في ملكه -جل وعلا- وهذا خبر كان محذوف لا يكون في ملكه غير ما يريد ؛ أي لا يكون فيما خلقه الله – عز وجل- وأوجده في هذا الملك وهذا الكون شيءٌ لا يريده الله ، وهذا فيه أن الله – عز وجل- له المشيئة النافذة وله –تبارك وتعالى- القدرة الشاملة فلا يكون غير ما يريد ، فكل ما يريده –سبحانه وتعالى- في هذا الكون لا بد أن يقع طبقاً لما أراد ، والمراد هنا بالإرادة في قوله –رحمه الله- (لا يكون غير ما يريد) الإرادة الكونية القدرية ، لا الإرادة الدينية الشرعية ، لأن الإرادة التي تضاف إلى الله –عز وجل- تارة يراد بها الإرادة الكونية القدرية ، وتارة يراد بها الإرادة الشرعية الدينية ، والإرادة

الكونية هي المعنية هنا والمرادة بقوله « **وَلاَ يَكُونُ غَيْرَ مَا يُرِيدُ** » أي لا يكون شيء غير الذي يريده الله-تبارك وتعالى- أي كوناً وقدراً ، أما مايريده- جل وعلا- شرعاً وديناً قد يقع وقد لا يقع مايريده من عباده شرعاً وديناً أراد منهم العبادات الطاعة الصلوات البر الإحسان هذه كلها أراده الله-سبحانه وتعالى- من عباده شرعاً ودينا ، لكن منهم من فعل هذه الأمور التي أرادها لله ومنهم من لم يفعلها أما فيمايتعلق بالإرادة الكونية القدرية فلا يكون إلا ما يريد ، أي أن ما أرده سبحانه كان طبقاً لما أراد وما لا يريد – سبحانه وتعالى- لا يكون ، ماشاء الله كان ولم يشا لم يكن ، والإرادة الكونية القدرية ترادف المشيئة ، فما أراده الله كوناً وقدراً أي ماشاءه سبحانه وماشاء الله كان ولم يشأ لم يكن .

« **مُنفَرِدٌ** » أي الله « **بِالْخَلْقِ وَالإِرَادَهْ** » أي لا شريك له « **مُنفَرِدٌ بِالْخَلْقِ** » أي هو وحده -تبارك وتعالى- الخالق لهذه المخلوقات والمنشئ لهذه البريات والموجد لهذه الكائنات لا شريك له ، هذا معنى المنفرد أي لا شريك له ﴿ **هل من خالقٍ غير الله يرزقكم** ﴾ الجواب لا ، فهو سبحانه منفردٌ بالخلق ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ومالهم فيهما من شرك وما لهم منهم من ظهير** ﴾ فهو سبحانه وتعالى منفردٌ بالخلق ، ومنفردٌ بالإرادة ؛ أي له تبارك وتعالى الإرادة المطلقة التي لا معقب لها ولا راد ، فهو سبحانه ما أراده يكون لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه سبحانه وتعالى .

« **وَحَاكِمٌ جَلَّ بِمَا أَرَادَهْ** » حاكم أي بين العباد بما أراده هو سبحانه وتعالى ، فهو الذي له الإرادة المطلقة والمشيئة النافذة والقدرة الشاملة في هذا الكون ، فلا يكون قي هذا الكون إلا ما أراده الله له الحكم وله الأمر جل وعلا .

قال – رحمه الله – :

فَمَنْ يَشَأْ وَفَّقَهُ بِفَضْلِهِ وَمن يَشَأْ أَضَلَّهُ بِعَدْلِهِ
فَمِنْهُمُ الشَّقِيُّ والسَّعِيدُ وَذَا مُقَرَّبٌ وَذَا طَرِيدُ

الشرح :

« **فَمَنْ يَشَأْ وفقه بفضله** »أي الله -جل وعلا- «**ومن يشأ أضله بعدله**»أي الأمر له سبحانه في هذا الكون فهو المتصرف فيه وحده لا ند له ولا شريك سبحانه وتعالى يتصرف في العباد كيف يشاء ويقضي ما يريد ، ولهم فيهم المشيئة النافذة ، ومعنى المشيئة النافذة أي ما شاءه كان ولا بد ، ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن حتى وإن لم يشأ العبد ذلك لا بد أن يقع الشيء الذي شاءه الله- جل وعلا- ، فما شاء كان لابد أن يقع ، له –

سبحانه وتعالى- المشيئة النافذة كما له القدرة الشاملة إن الله على كل شيء قدير ، « **فمن يشأ وفقه بفضله ومن يشأ أضله بعدله** » كما قال تعالى ﴿ **من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم** ﴾ كما قال تعالى ﴿ **من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون**﴾ وكان – عليه الصلاة والسلام- يقول لخطبة الحاجة « **من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له** » فالأمر بيد الله الهداية والضلال والكفر والإيمان والطاعة والعصيان كل ذلك بيده قال سبحانه ﴿ **أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء** ﴾ فالأمر بيده من اهتدى فهدايته منةٌ من الله عليه ، قال تعالى ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحدٍ أبدا ولكن الله يزكي من يشاء** ﴾ قال تعالى ﴿ **ولكنّ الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة** ﴾ هذا التحبيب للإيمان وشرح الصدر له والتكريه بالكفر هذا فضل من الله ،﴿ **فضلاً من الله ونعمة والله عليمٌ حكيم** ﴾ قال سبحانه ﴿ **يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان** ﴾ فالهداية للدين منة الله هو الهادي هو الموفق ،ولهذا جاء في صحيح البخاري كانوا يرتجزون يقولون :

لولا الله ما اهتدينا ولا صمنا ولا صلينا

الاعتراف والإقرار بمنة الله أهل الجنة إذا دخلوا الله –نسأل الله من فضله- يقولون ﴿ **الحمدلله الذي هدانا لهذا وماكنا لنهتدي لولا أن هدانا الله** ﴾ هذه منة الله –جل وعلا- وهو فضل منه وانعام ولهذا قال الناظم- رحمه الله- فمن يشأ وفقه بفضله ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة** ﴾ فالهداية فضل من الله يتفضل بها على من يشاء سبحانه وتعالى هذا معنى قوله « **فَمَنْ يَشَأْ وَفَّقَهُ بِفَضْلِهِ** » أي الله سبحانه وتعالى « **وَمن يَشَأْ أَضَلَّهُ بِعَدْلِهِ** » لا يظلم الرب سبحانه وتعالى أحد ﴿ **وما ربك بظلامٍ للعبيد** ﴾ فمن أضله الله ؛ أضله تبارك وتعالى بعدله وهذا فيه أن ينتبه المسلم هنا إلى أن الله-سبحانه وتعالى- لا يظلم أحداً

« **وَمن يَشَأْ أَضَلَّهُ بِعَدْلِهِ** » الناس منقسمون إلى فريقين فريقٌ هدى الله وفريقٌ حقت عليهم الضلالة كما قال تعالى ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم حقت عليه الضلالة**﴾ فالناس منقسمون إلى فريقين قسمٌ هداهم الله بفضله وهم السعداء ، وقسمٌ أضلهم الله بعدله وهم الاشقياء ﴿ **فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنة فسنيسره للعسرى**

﴿ ولهذا قال الناظم « **فَمِنْهُمُ الشَّقِيُّ والسَّعِيدُ** » أما السعيد فهو الذي هداه الله بفضله وأما الشقي فهو الذي أضله الله بعدله .

« **وَذَا مُقَرَّبٌ وَذَا طَرِيدُ** » «**ذَا**»الاشارة الى السعيد هذا « **مُقَرَّبٌ**» إلى الله سبحانه وتعالى «**وَذَا طَرِيدُ**» أي من رحمته طريد أي مبعد من رحمة الله سبحانه وتعالى .

« **وَذَا** » أي السعيد « **مُقَرَّبٌ** » أي إلى الله سبحانه « **وَذَا** » أي الشقي« **طَرِيدُ** » أي من رحمة الله عز وجل .

ونظير هذين البيتين قول الشافعي -رحمه الله- في أبيات له جميلة في القدر قال :

ما شئت كان وإن لم أشأ وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

خلقت العباد على ما علمت وفي العلم يجري الفتى والمسن

على ذا مننت وهذا خذلت وهذا أعنت وذا لم تعن

فمنهم شقي ومنهم سعيد ومنهم قبيح ومنهم حسن

قال - رحمه الله - :

لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ قَضَاهَا يَسْتَوْجِبُ الْحَمْدَ عَلَى اقْتِضَاهَا

« **لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ** » أي هذا الذي ذكر في البيتين السابقين وهو أنه -سبحانه وتعالى- يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله وأن الناس منهم شقي ومنهم سعيد ، منهم مقربٌ ومنهم طريد هذا كله لحكمة ، هذا كله صادر عن حكمة قال « **لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ قَضَاهَا** » فالله- سبحانه وتعالى- لا يفعل شيء ولا يصدر منه شيء إلا عن حكمة ومن أسمائه -تبارك وتعالى- الحكيم فهو- تبارك وتعالى- عليمٌ حكيمٌ خبيرٌ- جل وعلا- فكل هذه الأمور التي تقع في هذا الكون وتوجد إنما وجدت بمشيئة الله وإرادته -جل وعلا- وكل ما يقع في هذا الكون لله فيه حكمة ، ليس في أفعاله ما هو عبث أو ما هو صادرٌ عن غير حكمة -جل الله عز وجل- وتنزه عن ذلك ، فكل ما خلقه له -تبارك وتعالى- في ذلك حكمة وهذه المخلوقات هي مقتضى اسمائه هو سبحانه المالك الرافع القابض الباسط المبدي المعيد ، فهذه كلها من آثار ومن مقتضيات أسمائه -تبارك وتعالى- فالذي يقول لماذا يوجد هداية وضلال، خفض ورفع ، عز وذل ، عطاء ومنع ؛ مثله من يقول لماذا الله الخافض الرافع المعطي المانع ؟ هذا اعتراض على اسماء الله ، وعلى موجب أسمائه-تبارك وتعالى- كل ما يقع في هذا الكون هو موجب أسمائه ومقتضى حكمته ولا يكون إلا ما يريد كونا وقدرا سبحانه ولا يفعل شيئا الا عن حكمة ولهذا قال رحمه الله « **لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ قَضَاهَا** » أي خلق هذه الكونيات وأوجد هذه

المخلوقات وصرفها تبارك وتعالى كيف يشاء كل ذلك لحكمة « **يَسْتَوْجِبُ الْحَمْدَ عَلَى اقتِضَاهَا** » يستوجب أي يستحق -تبارك وتعالى- أن يحمد على اقتضاها ؛ أي اقتضاءه لهذه الأشياء وخلقه لهذه المخلوقات عن حكمة بالغة ، فهو-سبحانه وتعالى- مستحقٌ للحمد ، يحمد -جل وعلا- على كل حال ، يحمد تبارك وتعالى على كل حال ويتعوذ به -تبارك وتعالى- من حال أهل النار .

قال - رحمه الله - :

وهُوَ الَّذِي يَرَى دَبِيبَ الذَرِّ في الظُّلُمَاتِ فَوْقَ صُمِّ الصَّخْرِ
وَسَامِعٌ لِلْجَهْر وَالإِخفاتِ بِسَمْعِهِ الْوَاسِعِ لِلأَصْوَاتِ

الشرح :

ثم ذكر -رحمه الله- في هذين البيتين اثبات البصر والسمع لله -جل وعلا- قال في البيت الأول :

وهُوَ الَّذِي يَرَى دَبِيبَ الذَرِّ في الظُّلُمَاتِ فَوْقَ صُمِّ الصَّخْرِ

أي أنه -سبحانه وتعالى- بصير يرى دبيب الذر ، والذر هو النمل الصغير فهو -سبحانه- يرى دبيب الذر أي يرى مشي النمل الصغير (**في الظلمات فوق صم الصخر**) لاحظ الآن نملة صغيرة جداً وليلة ظلماء ، في آخر الشهر عندما لا يكون هناك ضياء للقمر ليلة ظلماء ظلام دامس ، وصخرة صماء فالنملة التي تدب ، النملة الصغيرة التي تدب على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ويكون لونها أسود ، ولون الصخرة اسود ، أو لونها أحمر ولون الصخرة أحمر ، إذا اقتربت أنت منها ودنوت وكنت حاد البصر ودققت النظر هل ترى شيئاً في الليلة الظلماء ؟ رب العالمين -جل وعز- يراها من فوق سبع سموات ، وليس هذا بل يرى جريان الدم في عروقها ، ويرى -جل وعلا- كل جزء من أجزاءها ، فنحن نؤمن بأن الله-سبحانه وتعالى- بصير ببصر يرى به كل المبصرات دقت أو جلت كبرت أو صغرت يرى كل شيء جميع المبصرات يراها-جل وعلا- من فوق سبع سموات وهذا معنى قوله : **وهُوَ الَّذِي يَرَى دَبِيبَ الذَرِّ في الظُّلُمَاتِ فَوْقَ صُمِّ الصَّخْرِ**

أي فوق الصخرة الصماء ، ثم قال :

« **وَسَامِعٌ لِلْجَهْرِ** » **أي الله** « **وَالإِخفاتِ** » يسمع السر والنجوى يسمع الصوت الخافت وغير الخافت « **بِسَمْعِهِ الْوَاسِعِ لِلأَصْوَاتِ** » وسع سمعه الأصوات كلها ليس فقط العالي ، بل وسع الأصوات كلها العالي منها وغير العالي ، ولهذا لما قال بعضهم للنبي -صلى الله عليه وسلم- أربنا بعيدٌ فنناديه أم قريبٌ فنناجيه ؟ قال : [إن الذين تدعونه سميعا بصيرا قريبا] أو كما قال -عليه الصلاة والسلام- ، وفي قصة المجادلة خولة

بنت حكيم –رضي الله عنها– لما جاءت تجادل النبي – عليه الصلاة والسلام– في زوجها وتشتكي إلى الله ، قالت أم المؤمنين عائشة–رضي الله عنها– « الحمدلله الذي وسع سمعه الأصوات » تقول المجادلة كانت في البيت ويغيب عني أكثر كلامها ، وسمع الله صوتها من فوق سبع سماوات ، وأنزل على نبيه قوله سبحانه ﴿ **قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير** ﴾ فعائشة –رضي الله عنها– لما نزلت هذه الآيات تقول « الحمدلله الذي وسع سمعه الأصوات» ،البشرية كلهم بل الإنس والجن قاموا أجميعن من لدن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، قاموا في لحظةٍ واحدة وفي صعيدٍ واحد ، ونادوا في لحظة واحدة نداءً واحداً كلٌّ يذكر حاجته وكلٌّ يذكر طلبته بلهجته ولغته في لحظة واحدة لسمعهم الله تبارك وتعالى أجميعن دون أن يختلط عليه صوت بصوت أو لغة بلغة أو حاجة بحاجة ، قال الله في الحديث القدسي « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعطيت كل واحد منكم مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر » فهو سبحانه وتعالى وسع سمعه الأصوات كلها وهذا معنى قوله رحمه الله « **وَسَامِعٌ لِلْجَهْرِ وَالإِخفاتِ** » « **بِسَمْعِهِ الْوَاسِعِ لِلأَصْوَاتِ** » هنا ينبغي أن ينبغي للمؤمن وطالب العلم إلى أن معرفة العبد لأسماء الله وصفاته العلى ينبغي أن يترتب عليه مقتضيات هذه المعرفة وهذا الإيمان بأن يحقق العبوديات التي تقتضيها هذه المعرفة ، فإذا عرفت أن ربك سميع وأنه بصير يسمع جميع الأصوات ، ويرى جميع المبصرات ؛ما العبودية التي يقتضيها علمك بأن الله سميع وأنه بصير؟ قد قال ابن القيم–رحمه الله– [لكل اسم من أسماء الله وصفه من صفاته عبودية موجبات الإيمان بها] فإيمان العبد بأن الله سميع هذا من أكبر الأمور التي تدفع الإنسان إلى صيانة لسانه وحفظ منطقه وأن يحافظ على كلامه ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدا** ﴾ فيحافظ على لسانه ويصونه صيانةً بالغة الإنسان إذا كان بحضرة شخصٍ مهيبٍ عنده وله مكانة ومنزلة وله شأن ؛ تجده يحافظ على لسانه ، ويعتدل في كلامه ، ولا يتكلم إلا بالكلام الذي يسره أن يكون هذا الوجيه أو هذا الفاضل يسمعه منه ، وإذا أراد أن يقول كلمة يزنها وزناً دقيقاً ، والله سبحانه وتعالى أحق أن نخشاه – جل وعلا– فاستحضار العبد لهذه الأسماء والصفات هو أكبر حاجز ، الشيخ الشنقيطي –رحمه الله– في بعض كتبه يقول [اتفق أهل العلم أو أجمع أهل العلم في أن أكبر زاجر للإنسان أن يعلم أن الله يراه] هذا أكبر زاجر أكبر زاجر أن تعلم أن الله يراك مطلع عليك يسمع كلامك ولا تخفى منه خافية ، ويرى مكانك ويرى حركاتك وسكناتك ولا تخفى عليه تبارك وتعالى منك منه خافية .

قال -رحمه الله- :

وَعِلْمُهُ بِمَا بَدَا وَمَا خَفِي أَحَاطَ عِلْما بالْجَلِيِّ وَالْخَفِي

أي ونؤمن ونثبت ما أثبته الله سبحانه وتعالى لنفسه وأثبته له رسوله -عليه الصلاة والسلام- أنه عليمٌ بعلم ولهذا قال(**وعلمه بما بدا وما خفي**) ما بدا أي ما ظهر عليمٌ بالظواهر والخفيات أحاط علما جل وعلا بكل شيء يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون أحاط بكل شيءٍ علماً وأحصى كل شيء عدداً ، يعلم ما يجري في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم أي بعلمه واطلاعه- سبحانه وتعالى- فهو جل وعلا عليم بكل شيء قال عز وجل ﴿ **الحمدلله الذي ل ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير* يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل في السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور* وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لا تأتينكم عالم الغيب لا مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتابٍ مبين** ﴾ فهو سبحانه وتعالى علمه واسع وسع كل شيء ﴿ **ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلما**﴾ فعلمه محيطٌ بالمخلوقات ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾ هو الذي خلق هذه المخلوقات وأبدع هذه الكائنات وأوجدها على غير مثال سابق-جل وعلا- فعلمه محيط بها ﴿**الله الذي خلق سبع سماوت ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيءٍ قدير وأن الله قد أحاط بكل شيءٍ علما**﴾ فخلقه للمخلوقات دليلٌ على إحاطة علمه تبارك وتعالى بها ، فهو -جل وعلا-عليمٌ بعلم يعلم به ما بدا وما خفي ، يعلم الأمور الظاهرة والأمور الخفية ، لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، الغيب عنده شهادة والسر عنده علانية ، لا يخفى عليه خافية الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين ، وهذا الإيمان بإحاطة علم الله هو أقوى أمر لتحقيق الاحسان الذي هو أعلى منازل الدين وأرفع رتبه ، ولهذا لما قال أخبرني عن الإحسان قال : [أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك] فأكبر دافع للإحسان في العبادة والاتيان بها على أحسن وجه وأتم حال أن تعلم أن الله يراك ويطلع عليك وعليم بك ولا تخفي عليه خافية .

« **أَحَاطَ عِلْما بالْجَلِيِّ وَالْخَفِي** » الجلي أي الظاهر من الأمور والخفي ضده .

قال -رحمه الله- :

وهو الغني بذاته سبحانه جلّ ثناؤه تعالى شانه

وكل شيءٍ رزقه عليه وكلنا مفتقرٌ إليــه

الشرح :

(**وهو الغني بذاته**) الغني اسـم من أسـمائه الحسـنى كما قال-جل وعلا- { ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد } فالله-سبحانه وتعالى- غني ،واسمه العني لا يتنافى مع كمال غناه وأن غناه-تبارك وتعالى- غنى ذلته ، فهو غني عن مخلوقاته من كل وجه ، ومخلوقاته مفتقرةٌ إليه من كل وجه لا غنى لها عنه طرفة عين ، كما أنها مفتقرة إليه سبحانه في ايجاده لها من العدم وخلقه لها بعد أن لم تكن ، فهي مفتقرة إليه في حركاتها وسـكناتها وقيامها وقعودها وكل شيء ، فالمخلوقات فقيرة إلى الله من كل وجه ، في كل لحظة وفي كل حركة وفي كل سكون ، لا غنى لها عنه طرفة عين ، وهو -سبحانه وتعالى- غني عن المخلوقات من كل وجه ، غني عن العرش وما تحته ، والعرش وما تحته كلهم فقراء إلى الله ، هو الممسـك للعرش والممسـك للسـماوات والممسـك للأرض ، و القائم على كل نفسٍ بما كسـبت قال الله تعالى { إن الله يمسـك الأرض والسـماوات أن تزولا ولئن زالتا إن أمسـكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفورا } فهو -جل وعلا- الغني عن المخلوقات ، والمخلوقات كلها فقيرةٌ إليه ، وهذا يبينه الناظم بقوله (**وهو الغني بذات سبحانه**) : أي أن غناه عن المخلوقات غنى ذاتي ، وفقر المخلوقات إليه فقرٌ ذاتي أي فقيرةٌ إليه من كل وجه وهو غني عنهم من كل وجه .

(**جل ثناؤه تعالى شانه**) فهو-تبارك وتعالى- الذي له الثناء الحسن (**جل**) أي عظم ثناؤه لا يحصى ثناء عليه -تبارك وتعالى- (**وتعالى شأنه**) أي تقدس شأنه سبحانه وتعالى .

قال (**وكل شيء رزقه عليه**) {وما من دابة إلا على الله رزقها} كل شيء رزقه على الله لهذا قال تعالى { فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشـكروا له } فكل شيء رزقه على الله { إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين } فكل شيء رزقه على الله ، هو الرزاق للناس والرزاق للدواب والرزاق للطيور والرزاق للهوام والحشـرات ، ما من دابة إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها .

ذكر بعض أهل العلم من الآثار منهم ابن كثير-رحمه الله- أن داود قال في مناجاته لله [اللهم يا رازق النعاب في عشه] النعاب قال في شرحه : صـغار الغراب ، والغراب ريشـه أسـود اللون ، وعندما يخرج صغيره من البيضه يكون لونه أبيض فتعافه أمه ؛ لأنه على لون غير لونها فتعافه ، لاحظ تهيأ له المكان وتدفئُه

فيه إلى أن يفقس من البيضة ثم تراه من اللون الأبيض فتتعافه وتذهب وتتركه ، تتركه في عش رفيع عالي في الشجرة ولا تأتي له بطعام تعافه فيقول : [يا رازق النعاب في عشه] ما من دابة إلا على الله رزقها ، يقول أهل العلم [أن النعاب لما يخرج من البيضة ولونه أبيض ، يكون عليه سائلٌ لزج فيسخر الله حشرات صغيرة تطير وتلزق بهذه المادة اللزجة على ريشه وشعره فتلزق به ويأكل منها يسوق الله له هذه الحشرات الصغيرة ويأكل منها إلى أن ينمو قليلاً ويبدأ لونه أسود وشعره يسوّد فترغبه أمه وتبدأ تأتي له بالحب ، ما من دابة إلا على الله رزقها هذا معنى قوله (**وكل شيء رزقه عليه**) أي على الله فالله تكفل بالأرزاق {إن الله هو ذو القوة المتين } (**وكلنا**) : أي معشر المخلوقات فقراء إلى الله لا غنى له عنه طرفة عين ، لا في قيامنا ولا في قعودنا ولا في طعامنا وشرابنا ولا في غدونا ولا في رواحنا ولا في أي أمر ، كلنا أي معشر المخلوقات (**مفتقرٌ إليه**) أي مفتقرون إليه سبحانه وتعالى ، ولهذا يقول جل وعلا في الحديث القدسي [ياعبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم] فكله بيد الله في مناجاة ابراهيم الخليل وبيانه لقبح عبادة الاصنام قال { والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين }

قال -رحمه الله-

كلّم موسى عبده تكليما ولم يزل بخلقه عليما

كلامه جلّ عن الإحصاء والحصر والنفاد والفناءِ

لو صار أقلاماً جميع الشجر والبحر تلقى فيه سبعة أبحر

والخلق تكتبه بكل آن فنت وليس القول منه فاني

والقول في كتابه المفصل بأنه كلامه المنزل

على الرسول المصطفى خير الورى ليس بمخلوقٍ ولا بمفترى

يحفظ بالقلب واللسان يتلى كما يسمع بالآذان

كذا بالأبصار إليه ينظر وبالأيادي خطه يسطر

وكل ذي مخلوقةٍ حقيقة دون كلام بارئ الخليقة

جلت صفات ربنا الرحمن عن وصفها بالخلق والحدثان

فالصوت والألحان صوت القاري لكنما المتلو قول الباري

ما قاله لا يقبل التبديلا كلا ولا أصدق منه قيلا

الشرح :

قال –رحمه الله– في باب صفة الكلام لله –جل وعلا –وأنه –سبحانه وتعالى– يتكلم بما يشاء متى شاء وأنه متصف بالكلام هذه الأبيات ساقها لبيان هذه الصفة بدأها بقوله :

(**كلم**) : أي الله ، (**موسى**) : أي رسوله عليه السلام ، (**تكلمياً**): أي تأكيد كما قال الله عزوجل { وكلم الله موسى تكليما } الله كلم موسى بصوت سمعه من الله ، فموسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة ، تكلم الله وموسى سمع كلام الله من الله ، ولهذا يقال له كليم الله ؛ لأن الله كلمه ، فقوله (**كلم موسى عبده تكليما**) هذا فيه اثبات أن الله–عز وجل– يتكلم بما شاء متى شاء –جل وعلا– وأنه كلم موسى قال تعالى { تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله } فالله كلم موسى وسمع موسى كلام الله–جل وعلا– من الله ، قال : (**ولم يزل بخلقه عليما**) : علمه –تبارك وتعالى– بخلقه الأزلي بكل ما كان وما سيكون ولم يزل –تبارك وتعالى– محيطاً بكل ما يكون وما لم يكن وما سيكون أحاط علماً– تبارك وتعالى– بكل شيء .

(**ولم يزل بخلقه عليما**) ثم قال (**كلامه جل عن الاحصاء والحصر والنفاد والفناء**)

كلام الله –عز وجل– أي تنزه وتقدس عن الإحصاء، أي تحصى كلمات الله وجلت كلمات الله عن النفاد والفناء ، فكلمات الله لا نهاية لها كما أنه هو آخر ليس شيء بعده فكلماته تبارك وتعالى لا نهاية لها ولا نفاد لها ولا فناء ، وجلت عن الاحصاء من أن يستطيع أحد أن يحصرها ولهذا قال تعالى { قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا } قال تعالى { ولو أنما في الأرض شجرة أقلاما والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله } يعني لو أشجار الأرض كلها تتحول إلى أقلام والبحار تتحول إلى مداد ويكتب بها كلمات الله لفنيت الأقلام ونفد المداد و لم تنفد كلمات الله ، فكلمات الله جلّت عن الإحصاء والحصر وجلت عن النفاد والفناء ، قال مبيناً أنها لا تنفد قال :

لو صار أقلاماً جميع الشجرِ والبحر تلقى فيه سبعة أبحرِ

والخلق تكتبه بكل آنِ فنت وليس القول منه فانِ

يعني لو صارت جميع الأشجار التي في الدنيا وتحولت إلى أقلام ، والبحر تلقى فيه سبعة أبحر ؛ يعني يتحول إلى مداد ويكتب فيه إلى أن يجف ثم يلقى في سبعة أبحر، والخلق تكتبه في كل آن ، في كل لحظة في كل وقت بالليل والنهار لا يقفون عن الكتابة ، البحار تنفذ والأقلام أيضاً تنتهي وكلمات الله لاتنتهي ،

(والخلق تكتبه بكل آن فنت) : أي الأقلام والمداد وليس القول منه أي من الله فان ، هذا فيه اشـارة إلى آية الكهف وآية لقمان .

قال رحمه الله :-

(والقول في كتابه المفصلْ) بسكون اللام مراعاة للروي .

القول أي الحق الذي نعتقده وندين الله به في كتابه : أي القرآن المفصل كما وصفه الله بذلك { كتابٌ فصلت آياته } القول في كتابه المفصـل والعقيدة التي نعتقدها في كتابه المفصـل أنه كلامه المنزل ، هذا الذي نعتقده نعتقد في القرآن وعقيدتنا في القرآن بأنه كلام الله-تبارك وتعالى- منزلٌ غير مخلوق ، هذه عقيدتنا في القرآن :

القول في كتابه المفصل بأنه كلامه المنزل

هذا الذي نعتقده في القرآن ، نعتقد أنه كلام الله غير مخلوق المنزل أي من الله ،كما قال تعالى { تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين } وكما قال تعالى { نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرن بلسـان عربي مبين }

قال : **بأنه كلامه المنزل على الرسول** .....

الجار والمجرور في قوله **(على الرسـول)** متعلق بما سبق في البيت الأول وهو قوله المنزل ، فكلامه المنزل على الرسـول أي محمد-صـلى الله عليه وسـلم- **(المصـطفى)** أي المختار ، قال تعالى { الله يصـطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس }

(على الرسول المصطفى خير الورى)

أي أفضـلهم وإمامهم ومقدمهم كما قال – عليه الصلاة والسلام- [أنا سيد ولد آدم] **(ليس بمخلوق)** أي كلام الله القرآن الذي نعتقده في القرآن أنه كلام الله المنزل على رسـوله ليس مخلوق واضـافته إلى الله إضـافة صفةٍ إلى موصوف { وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله } الإضافة هنا في قوله(كلام الله) مثل الإضافة في قولنا سمع الله أو بصر الله وعلم الله وإرادة الله وحكم الله ، هذه كلها إضافتها إلى الله إضافةُ صفة إلى موصوف ، وكلها غير مخلوقه فالله -سبحانه وتعالى- بأسمائه وصفاته خالق وما سواه – جل وعلا- مخلوق

(**ليس بمخلوق**) أي كلام الله (**ولا بمفترى**) أي مختلق ومكذوب وهذا فيه ابطال لعقيدة المشركين في كلام الله الذين يقولون في القرآن بأنه مفترى وأنه تقوله الرسول-صلى الله عليه وسلم- وأنه افتراه-صلى الله عليه وسلم- { قالوا أساطير الأوليين اكتتبها } { وقالوا إن هذا إلا إفكٌ يفترى } { وقالوا إن هذا إلا إفكٌ افتراه } { ويقولون إنما يعلمه بشر } { قالوا إن هذا إلا اختلاق } فالناظم يقول كلام الله ليس بمخلوق ولا بمفترى ؛ أي ليس بمختلق ولا مكذوب ، قوله -رحمه الله- في كلام الله (**ليس بمخلوق**) : أطال -رحمه الله- في كتابه معارج القبول في جمع الأدلة والشواهد من كلام السلف وأئمة المسلمين أطال اطالة نافعة جداً لطالب العلم يمكن الاطلاع عليها في كتابه ، وذكر جملة من الأدلة ؛ومما ذكره -رحمه الله- من الأدلة الواضحة البينة على أن كلام الله لس بمخلوق ؛ الجمع بين آيتين وهما قوله سبحانه { وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا } والآية الثانية قوله سبحانه { ألا له الخلق والأمر } فكلام الله الذي هو وحيه { روحاً من أمرنا } كلام الله من خلقه أو أمره ؟ الله يقول { ألا له الخلق والأمر } جعلهما شيئان الخلق شيء والآمر شيء وكلامه من أمره لأن الله فرق بينهما ، ثم بعد ذلك قال رحمه الله :

(**يحفظ**) أي القرآن .

يحفظ بالقلب وباللسان يتلى كما يسمع بالآذان

كذا بالأبصار إليه ينظرُ وبالأيادي خطه يسطرُ

وكل ذي مخلوقة ..... ((هذه التي عددها))

هنا ينبه المصنف- رحمه الله- على فائدة عظيمة جداً ومهمة في عقيدتنا القرآن وأنه كلام الله -سبحانه وتعالى -غير مخلوق وهي أننا نعتقد أن القرآن أينما توجه فهو كلام الله ؛ سواء حفظ في القلوب أو تلي بالألسن أو سمع بالآذان أو نظر إليه بالأبصار أو كتب في السطور، فالقرآن أينما توجه فهو كلام الله غير مخلوق ؛ سواء كتُب أو حفظ أو تلي أو سمع أو نظر إليه في المصاحف أينما توجه فهو كلام الله غير مخلوق ، وهذا هو كلام السلف -رحمهم الله-وغيره يقولون القرآن أينما توجه فهو كلام الله غير مخلوق ، وهو يتوجه إلى أمور خمسة جمعها الناظم في بيتين : إما حفظٌ في القلب قال { وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك } قال تعالى { بل هو آياتٌ بيناتٌ في صدور الذين أوتوا العلم } فالقرآن إذا حفظ في الصدور هذا الأمر الأول ، أو تُلي بالألسن هذا الأمر الثاني على حسب ترتيب الناظم ، { لا تحرك به لسانك لتعجل به } الثالث : السماع بالآذان { وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله } الرابع نظر إليه بالأبصار ،

عندما ينظر إليه المؤمنون في الأبصار وهو في المصحف ، هل نظر الناس إليه بالأبصار يغيره عن حقيقته وأنه كلام الله ؟ وإن نظر إليه بالأبصار فهو كلام الله غير مخلوق الأمر الخامس : وبالأيادي خطه يسطر حتى وإن كتب في المصاحف فهو كلام الله .

إذن القرآن كلام الله غير مخلوق سواء حفظ بالقلوب أو تُلي بالألسن أو سُمع بالآذان أو أُبصر بالأبصار أو كُتب في السطور خمسة هذه فهو كلام الله ، والكلام يُنسب إلى من قاله ابتداءً لا إلى من نقله أداءً وهذا أمر متقرر ؛ الكلام ينسب إلى من قاله ابتداءً لا إلى من نقله أداءً ، وهذا واضح عند الناس ، الآن لما تنقل للآخر بيت من الشعر لأحد من المتقدمين هل نقلك لهذا البيت أصبح البيت لك وينسب إليك ؟ لا أحد ينسبه إليك ، كونك نقلته لا أحد ينسبه إليك ويقول البيت قاله فلان مع أنك نقلته ، الكلام ينسب إلى من قاله ابتداءً ، الناقل لا يُنسب إليه الكلام إلا على وجه البلاغ ، {إنه لقول رسولٌ كريم} هذا بلاغ ، أما الكلام ينسب إلى من قاله ابتداءً والقرآن ممن بدأ ؟ { تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين } لهذا قال السلف [منه بدأ وإليه يعود] فالقرآن بدأ من الله-سبحانه وتعالى- فهو كلامه ولا يخرجه عن كونه كلام الله هذه الأمور، كونه يُحفظ في القلوب أو يُتلى بالألسن أو يُسمع بالآذان أو يُبصر بالأعين أو يُكتب في السطور هو كلام الله أينما توجه ، قال : (**وكل ذي مخلوقه**) : القلب مخلوق ، واللسان مخلوق ، والأسماع مخلوقة ، والأبصار مخلوقة ، والحبر والورق والمداد مخلوقة ؛ وكلام الله غير مخلوق ، لهذا لا تخلط الأمور كوننا حفظناه في صدورنا ، القلب أو الصدر مخلوق أما المتلو والمحفوظ فهو كلام الله غير مخلوق ، كوننا نقرأه بألسنتنا اللسان مخلوق ، الصوت صوت القارئ والكلام كلام الباري ، وسيأتي عند الناظم بيت في هذا المعنى ، فالقلب مخلوق واللسان مخلوق والأذن مخلوقة والأبصار مخلوقة والحبر والمداد والقراطيس مخلوقة ولهذا قال الناظم : (**وكل ذي مخلوقة**) الإشارة في ذي إلى ما ذكرته لك في الأبيات .

كل ذي مخلوقة حقيقة دون كلام بارئ الخليقة

فكلام بارئ الخليقة غير مخلوق ، إذن يفرق بين التلاوة والمتن ، يفرق بين الصوت وبين الكلام ، يفرق بين هذه المخلوقات وبين كلام الله- سبحانه وتعالى- قال (**دون كلام بارئ الخليقة**) أي أن كلام الله منزلٌ غير مخلوق ولهذا يقول رحمه الله :

جلت صفات ربنا الرحمنِ عن وصفها بالخلق والحِدثانِ

(**جلت صفات ربنا**) : أي تنزهت وتقدست صفات الله -سبحانه وتعالى- أن توصف بالخلق (**الحدثان**) أي أنها مخلوقة أو محدثة فصفات الله سبحانه منزه عن ذلك (**والحِدثان**) أظن لو قيل (**الحَدثان**) ينكسر البيت وأنا لا أفقه هذه الأمور الحدثان أي أنها محدثة مخلوقة فصفات الله جلت وتنزهت عن ذلك .

قال :

فالصوت والألحان صوت القاري لكنما المتلو قول الباري

(**الصوت والألحان صوت القاري**) نحن نقول صوت عالي وصوت خافض ، والألحان نقول فلان صوته جميل وصوته حسن ، وفلان صوته غير جميل ؛ هذا المدح وعدمه منصبٌ إلى هذا الشيء المخلوق ، الصوت والألحان صوت القاري فالصوت والألحان ما شأنها ؟ مخلوقة الصوت صوت القاري يقال فلان صوته غير جميل ، فهذا الذي يقال عنه غير جميل مخلوق ليس هذا وصفٌ للكلام وإنما وصفٌ للصوت ، فيقول الصوت والألحان صوت القاري ، السلف قالوا قديماً [الصوت صوت القاري ، والكلام كلام الباري] ولهذا قال تعالى { وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله } كونه تُلي لا يخرجه عن كونه كلام الله وأن الله هو الذي تكلم به -سبحانه وتعالى-

(**لكنما المتلو**) الذي هو القرآن الكريم قول الباري ؛ أي كلام الله منزلٌ غير مخلوق .

قال :

ما قاله أي الله لا يقبل التبديلا كلا ولا أصدق منه قيلا

شاهد ذلك قوله تعالى { ما يبدل القول لدي } { لا مبدل لكلماته } فما قاله لا يقبل التبديلا؛ بخلاف قول غيره(**كلا**) أي لا يكون ذلك كلام الله لا يقبل التبديل (**ولا أصدق منه**) أي من الله تبارك وتعالى (**قيلا**) كما قال عزوجل { ومن أصدق من الله حديثا } { ومن أصدق من الله قيلا} وكان النبي-صلى الله عليه وسلم- يقول في خطبة الحاجة [أما بعد فإن أصدق الحديث كلام الله]

قال -رحمه الله- :

وقد روى الثقات عن خير الملا بأنه عزّ وجلّ وعلا

في ثلث الليل الأخير ينزلُ يقول هل من تائبٍ فيقبل

هل من مسيءٍ طالبٍ للمغفرة يجد كريماً طالباً للمعذرة

يمنّ بالخيرات والفضائل ويستر العيب ويعطي السائل

الشرح

ثم ذكر في هذه الأبيات اثبات صفة النزول لله -عز وجل- وأن هذه الصفة ثابتة لله -تبارك وتعالى- بالأحاديث المتواترة عن النبي-صلى الله عليه وسلم- وحديث النزول حديث ثابت كما قرر بذلك اهل الشأن وأهل الحديث وعدد الصحابة الذين رووا عن النبي- صلى الله عليه وسلم- بلغت عدتهم كما ذكر ابن القيم-رحمه الله-وعدهم في كتابه الصواعق ثمان وعشرين صحابياً كلهم رووا عن النبي-صلى الله عليه وسلم- حديث النزول ولهذا يقول الناظم :

(**وقد روى الثقات عن خير الملا**) : أي عن محمد –صلى الله عليه وسلم-

بأنه عز وجل وعلا في ثلث الليل الأخير ينزلُ

هنا يبين الشيخ أن حديث النزول رواه الثقات (**عن خير الملا**) أي عن النبي-صلى الله عليه وسلم- وهذا فيه نوع إلماحة إلى تواتر هذا الحديث عن النبي –صلى الله عليه وسلم- .

(**في ثلث الليل الأخير ينزل**) روى الثقات عن النبي-صلى الله عليه وسلم- أن الله ينزل في الثلث الأخير من الليل ؛ كما جاء في حديث أبي هريرة وغيره في الصحيحين يقول النبي –صلى الله عليه وسلم- [ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلية حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفرله من يدعوني فأستجيب له] فهو تبارك وتعالى ينزل في الثلث الأخير من الليل كما أخبر بذلك النبي-صلى الله عليه وسم- (**يقول**) أي الله حينما ينزل: هل من تائب فيقبل !!

هل من مسيءٍ طالبٍ للمغفرة يجد كريماً قابلا بالمعذرة

وهذا فيه اشارة إلى ماجاء في الحديث [هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فأغفر له هل من داعٍ فأستجيب له] وهذا فيه فضل هذا الوقت المبارك وأنه أحرى أوقات الإجابة وأحرى أوقات الدعاء والاستغفار ولهذا قال سبحانه { وبالأسحار هم يستغفرون } وقال تعالى { والمستغفرين بالأسحار } فهو وقت فاضل وأحرى أوقات الإجابة لأن الرب سبحانه وتعالى ينزل في ذلك الوقت ويقول هذه الكلمات (من يسألني من يستغفرني من يدعوني) .

(**يمن بالخيرات والفضائل**) :أي أنه سبحانه ينزل ليمن على عباده بالخيرات والفضائل ، الخيرات غفران الذنوب واجابة الدعوات وإقالة العثرات

(**ويستر العيب يعطي السائل**) : هذه فضائل وخيرات يمنّ الله سبحانه وتعالى بها على عباده في هذ الوقت المبارك ، وهذا الوقت هو من أكثر الأوقات ضياعاً في زماننا ، عند طلبة العلم وغيرهم ؛ لأن الناس الآن اعتادوا على السهر والنبي-صلى الله عليه وسلم- نهى عن السمر بعد هدئة الليل ، والنوم المبكر هو الذي يعين بإذن الله تبارك وتعالى على المحافظة على هذا الوقت الفاضل ، والقيام فيه بالدعاء والاستغفار والطلب من الله- سبحانه وتعالى- وكانوا قديماً خاصةً قبل هذه الحضارة الإضاءة والأنوار ، الآن مع الأنوار الليل أصبح مثل النهار بينما سابقاً ما كانت هذه الاضاءات حتى من لا يريد أن ينام يضطر إلى النوم؛ لأن الكون يهدأ والدنيا تظلم ، يريد أن يعمل شيء لا يستطيع ،الكون ظلام فليس له حل إلا أن ينام والصباح الباكر يقوم ، لكن الآن مع توفر هذه الاضاءات تخرج في الشوارع كلها أنوار حتى النجوم ما نعرفها السماء ، نمشي في الشوارع ما نرى النجوم الإضاءة غطت الأماكن كلها في المدن، تجد الحركة بعد العشاء طبيعية مثل الحركة في الصباح ، بينما الآن القرى في العالم التي ما دخلتها الحضارات ينامون مبكراً ، والذي ينام مبكر يقوم آخر الليل بنشاط ؛ الآن حتى طلبة العلم يقومون لصلاة الفجر بكسل ، وبعضهم ما يقوم يأذّن للصلاة ، دعك من قيام الليل والنوافل الآن في الفريضة ، مصيبة الناس ليست بهذه الرغائب والفضائل بل الفرائض، الآن بعض طلبة العلم ينام عن صلاة الفجر وبعضهم يأتي إليها متأخر باستمرار؛ تفوته الركعة الاولى وربما يأتي باستمرار يأتي عندما يسلم الإمام ليست المسألة في الرغائب بل الفرائض وجاء في الحديث الصحيح أن الله عزوجل يقول [يابن آدم اركع لي أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره] قال ابن تيمية- رحمه الله- المراد سنة الفجر وفريضة الفجر ، الآن حتى هذه الفريضة التي هي فريضة الفجر { وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً } الآن بعض طلبة العلم ينام عنها ؛ والسبب السهر بالليل ، والسهر بالليل لو كان على تلاوة قرآن وحفظ للعلم إذا اكان على حساب صلاة الفجر فهو حرام يأثم ؛ حتى لو كان على تلاوة القرآن فكيف إذا كان في السمر واللهو والمرح والحديث ، السهر حرام ، يكتب على الإنسان اثماً حتى لوكان في قراءة القرآن إذا كان على حساب الفرض ، فلا تضيع الفرائض بالنوافل ، فكيف بمن يضيع الفرائض باللهو واللعب والسمر الباطل ، فهذا أمر ينبغي أن يتنبه له الناس عموماً وطلبة العلم على وجه الخصوص ، وإذا كان الإنسان يضيع صلاة الفجر ثم حصّل علماً وحفظ متوناً وتفقه ثم رجع إلى بلده وهو على عادته ينام عن صلاة الفجر ، ماذا يكون شأنه عند العوام ومن كانوا يتحرون فلان جاء من بلد كذا وعنده علم ، ثم عن صلاة الفجر يجدونه مفرّط فيها ، أو يجدونه في آخر الصف تفوته ركعة أو تفوته

ركعتين أو ثلاث ، ويكون مفرطاً، ولهذا أذكر أحد العوام المحافظين على الصلاة والتبكير لها زرته مرة في مسجده وجلست أتحدث معه وقلت له ماشاء الله عندكم طلبة علم في هنا في هذا الحي قال : حينا هذا ؟ قلت : نعم ، قال : الحي هذا ؟ قلت : نعم أعرف فيه بعض طلبة العلم ، قال : حيّنا هذا ويعيدها لي ، قلت : نعم ، قال : يارجال الذي لا يأتي للصلاة ولا يبكر لها هذا ليس بطالب علم . سعيد بن جبير يقول : [أربعين سنة ما فاتتني تكبيرة الاحرام]، وبعض السلف يقول : [إذا رأيت الرجل تفوته تكبيرة الاحرام اغسل يدك منه] ، فالآن حتى عند بعض طلبة العلم فليست المسألة في هذا الوقت الفاضل بل في الفريضة فريضة الفجر، ولهذا يجب أن نتعاون على البر والتقوى ونتقي الله ، ونعمل بما علمنا الله عز وجل وما فقهنا به ونكون أشد ما نكون محافظة على الفرائض ، في الحديث القدسي يقول تعالى [ما تقرب عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه] النبي-صلى الله عليه وسلم- سئل أي العمل أحب إلى الله ؟ قال الصلاة على قتها ، { إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا} هذا الأمر لابد أن ننتبه له .

ثم انتقل إلى صفة أخرى :

وأنه يجيء يوم الفصلِ كما يشاء للقضاء العدلِ

(**يجيء**) أي الله سبحانه وتعالى (**يوم الفصل**) أي يوم القيامة يوم الجزاء يوم الحساب يجيء بنفسه ، وهذا من كمال مجازاته سبحانه وتعالى وهو المديان ؛ ومن أسمائه الحسنى المديان أي المجازي { إنا لمدينون } أي مجزيون ، { هذا يوم الدين } أي الحساب { مالك يوم الدين } أي الحساب فيوم الدين الذي هو يوم الجزاء والحساب من كمال الله ومجازاته أنه جل وعلا يجيء بنفسه كما قال الله { وجاء ربك } أي هو سبحانه وتعالى { وجاء ربك والملك صفا صفا } { هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة } { هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك } فنؤمن أي نعتقد وندين الله سبحانه وتعالى بأنه جل وعلا يجيء يوم الفصل (**كما يشاء**) يجيء مجيئاً يليق بجلاله كما يشاء سبحانه لانعلم كيفيته ولا نخوض في كيفيته (**كما يشاء**) لأجل ماذا ؟ (**للقضاء العدل**) أي ليقضي بين العباد تبارك وتعالى بالعدل { ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفسٌ شيئا }

قال رحمه الله :

وأنه يرى بلا إنكار في جنة الفردوس بالأبصار

كل يراه رؤية العيان كما أتى في محكم القرآن

وفي حديث سيد الأنام من غير ما شك ولا إبهام

رؤية حق ليس يمترونها كالشمس صحوا لا سحاب دونها

وخص بالرؤية أولياؤه فضيلة وحجبوا أعداؤه

ثم في هذه الأبيات أخذ يتحدث رحمه الله تعالى عن رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة- نسأل الله الكريم من فضله- في هذه الأبيات يتحدث رحمه الله عن الرؤية ، وأنها حق ثابتة في القرآن الكريم وفي سنة النبي-صلى الله عليه وسلم- أما في القرآن يقول الله عزوجل { وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} ويقول { كلا إنهم عن ربهم يوئذ لمحجوبون } وهي ثابتة في سنة النبي الكريم- عليه الصلاة والسلام- كما ستأتي الاشارة عند الناظم -رحمه الله- قال :

(**وأنه يرى**): أي نعتقد ونؤمن أنه : أي الله ، يرى يوم القيامة كما قال – عليه الصلاة والسلام- [اعلموا أنكم لن ترون ربكم حتى تموتوا]

(**بلا إنكار**): أي بلا جحود .

(**في جنة الفردوس بالأبصار**) : في جنة الفردوس يراه المؤمنون حقيقةً بأبصارهم ، ولهذا قال -عليه الصلاة السلام-في الصحيحين [إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وصلاةٍ قبل غروبها فافعلوا] يعني يامن يطمع في رؤية الله –عزوجل- يوم القيامة لا تضيع الصلاة ،[إن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا] وهنا انتبه الصلة بين الصلاة والرؤية، هذه الصلة بين الصلاة والرؤية دل عليها الحديث هذا كما سمعتم ودل عليها القرآن { وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راق وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق فلا صدق ولا صلى } من هو الذي يبوء بهذه العقوبة ؟ الذي لا يصدق ولا يصلي ، {وجوهٌ يومئذ باسرة} أما الذي يتصدق ويصلي يكرمه الله بهذا الفضل ، ولهذا كان -عليه الصلاة والسلام- في صلاته يقول : [اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة] يدعو بهذا الدعاء في الصلاة كما ثبت في النسائي وغيره ففيه صلة بين الصلاة والرؤية ولهذا لما ذكر الرؤية -عليه الصلاة والسلام- قال [إن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس-صلاة الفجر- وصلاة قبل غروبها –صلاة العصر- فافعلوا] وهذا فيه فضيلة هاتين الصلاتين الفجر والعصر .

(**كلٌ يراه رؤية العيان**) : أي أهل الإيمان يرونه رؤية العيان أي بأبصارهم حقيقة .

(**ما أتى في محكم القرآن**) : مثل قوله تعالى { وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة }

وقوله تعالى { على الأرائك ينظرون } وأيضا الآية التي أشرت إليها { كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون }

قال الشافعي رحمه الله [حجبه لهم في السخط دليل على رؤيته لأوليائه له في الرضا]

(**وفي حديث سيد الأنام**) : الجار والمجرور متعلق بقوله (**أتى**) أي أتى في محمك القرآن وأتى في حديث سيج الأنام .

(**من غير ما شك ولا ايهام**): أتى ثابتاً بالأسانيد الصحيحة وواضحاً صريحاً ليس فيه شك ولا ابهام فهو من حيث السند ثابت ومن حيث المعنى واضح ، صحيحٌ صريح عن خير الأنام(**سيد الأنام**) -صلى الله عليه وسلم- ، ماهو ؟ قال :

(**رؤية حق ليس يمترونها**) : أنه يرى رؤية حق ليس فيها شك ولا ريب يرونه رؤية حق لا يمترونها ليس فيها امتراء قد قال عليه الصلاة والسلام [إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر] هذا تأكيد وتثبيت أنها رؤية لا امتراء فيها كما ترون القمر ليلة البدر وهذا تسبيه للرؤية بالرؤية وليس للمرء بالمرء.

(**كالشمس صحواً لا سحاب دونها**) : وهذا المعنى ثابت عن النبي-صلى الله عليه وسلم- ثبت عنه في بعض الأحاديث ذكر الشمس وبعضها ذكر القمر ، قال :

(**وخصَّ بالرؤية أولياؤه فضيلة**) : أي أن هذه الرؤية خاصة بأولياؤه فضيلة لهم وإكراماً ، ولهذا جاء في صحيح مسلم يقول –عليه الصلاة والسلام- [إذا دخل أهل الجنة الجنة يناديهم الله عز وجل هل تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ألم تكرمنا ألم تنجنا من النار ألم تدخلنا الجنة ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطوا شيئاً أحبّ إليهم من النظر إلى الله عز وجل] وهذا يدل أن النظر إلى الله هذا أكبر نعيم ، أكبر نعمة وأعظم منة وأجل عطية أن يكرمك الله أن تراه ، ليس فوق هذه النعمة نعمة أكبر النعم قال [فما أعطوا شيئاً] متى قيلت هذه الكلمة ، [قالوا ألم تدخلنا الجنة ألم تنجنا من النار ألم تبيض وجوهنا ألم ألم] بعد هذه النعم المتواترة والنعيم الذي يهنؤن به ويسعدون قال [فيكشف الحجاب فينظرون إلى الله فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى الله] هذا دليل واضح أن رؤية الله-نسأل الله جميعاً من فضله- أكبر نعمة وأجل منة ، اللهم إنا نسألك النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة .

(**وحجبوا أعدائه**) : هذا دليله قوله تعالى { كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم }

قال : -رحمه الله-

وكل ما له من الصفات أثبتها في محكم الآيات

أو صح فيما قاله الرسول فحقه التسليم والقبول

نمرها صريحة كما أتت مع اعتقادنا لما له اقتضت

من غير تحريف ولا تعطيل وغير تكييف ولا تمثيل

بل قولنا قول أئمة الهدى طوبى لمن بهديهم قد اهتدى

وسم ذا النوع من التوحيد توحيد اثبات بلا ترديد

قد افصح الوحي المبين عنه فالتمس الهدى المنير منه

لا تتبع أقوال كل مارد غاو مضل مارق معاند

فليس بعد رد ذا التبيان مثقال ذرة من الإيمان

يقول -رحمه الله- بعد أن سرد سرداً طيباً نافعاً لأسماء الله -تبارك وتعالى- وصفاته قال بعد هذا التفصيل:

وكل ما له من الصفات : أي ما ذكر قليل من كثير والقاعدة في الصفات والأسماء كلها واحدة وبابها واحد والقول فيها واحد ،(**وكل ما له من الصفات**) مما ذكرناه ووما لم نذكره

أثبتها : أي الله (**في محكم الآيات**) (**أو صح فيما قاله الرسول**) (**فحقه التسليم**) (**حقه**) هذا جواب لقوله(**كل ما له**) فكل ماله من الصفات حقه التسليم ، مثل ما قال الزهري -رحمه الله- [من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم] فكله حقه التسليم كل ما جاء في صفات الله من القرآن والسنة حقه التسليم والقبول .

وكل ما له من الصفات أثبتها في محكم الآيات

سواء المثبت في محكم الآيات أي التي أثبتها الله في محكم الآيات .

أو صح في ما قاله الرسول فحقه التسليم والقبول

معنى البيتين أن كل ما ثبت في القرآن وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- من صفات الباري -سبحانه وتعالى-حقه التسليم والقبول ، ليس حقه الانتقاد و التحريف والتعطيل وغير ذلك من المسالك الباطلة

كل ما له من الصفات مما ثبت في القرآن وثبت في السنة حقه التسليم ،لهذا يقول الإمام أحمد رحمه الله [ونصف الله بما وصف به نفسه وبما وصف به رسوله-صلى الله عليه وسلم- لانتجاوز القرآن والحديث] ثم قال :

نمرها صريحة كما أتت مع اعتقادنا لما له اقتضت

هذا بيت جميل جداً يبين المنهج ؛ منهج أهل السنة في الصفات أنهم يمرونها صريحةً كما أتت (**صريحة**) أي على ظاهرها (**كما أتت**) هي جاءت – وهذه انتبوا لها- هي جاءت في القرآن والسنة محملة بمعاني ، آيات الصفات وأحاديث الصفات أتت محملة بمعاني ، والسلف رحمهم الله ذكروا قاعدة جميلة يشير إليها الناظم في هذا الباب وهي : نمرها كما جاءت ، كيف يتم لنا امرارها كما جاءت ؟ لا يتم لنا امرارها كما جاءت إلا بما ذكره الناظم هنا :

نمرها صريحة كما أتت مع اعتقادنا لما له اقتضت

إذا لم نعتقد ما اقتضته الصفات لم نمرها كما أتت لماذا ؟ لأنها أتت محملة بالمعاني ، الآن قوله{ الرحمن على العرش استوى} { بل يداه مبسوطتان } { غضب الله عليهم} إلى غيرها من آيات الصفات هذه ألفاظ لامعاني لها أو ألفاظ محملة بمعاني هي ألفاظ محملة بمعاني ، ولا يمكن أن نمرها كما جاءت إلا بما قاله الشيخ (**مع اعتقاد لما له اقتضت**) وهي اقتضت أن نثبت ما أثبته له نفسه ، ونحن لا نكون ممرين لقوله تعالى { الرحمن على العرش استوى } إلا إذا اعتقدنا أن الله مستو على العرش حقيقة كما أخبر لا نكون ممرين لقوله تعالى { غضب الله عليهم } إلا إذا اعتقدنا أن الله يغضب سبحانه ، لا نكون ممرين لقوله تعالى { رضي الله عنهم } إلا إذا اعتقدنا أنه يغضب كما اخبر ، فلا يكون العبد ممراً لآيات اصفات وأحاديث الصفات كما جاء إلا إذا حقق هذا المعنى للذي أشار إليه الناظم بقوله : (**مع اعتقادنا لما له اقتضت**) ثم يحذر من أمور أربعة ومسالك أربعة باطلة يجب أن يحذر منها قال :

من غير تحريف ولا تعطيل وغير تكييف ولا تمثيل

تحريف : أي من غير أن نغير أو نبدل لا في الألفاظ ولا في المعاني **ومن غير تعطيل** التعطيل هو النفي لا ننفي أسماء الله ولا شيئاً منها

والتكييف : هو محاولة معرفة كيفيتها التكييف باطل .

ولا تمثيل : أي من غير أن يمثل تبارك وتعالى بخلقه أو أن يمثل به أحد من خلقه قال تعالى { ليس كمثله شيء } { هل تعلم له سميا} هذه امور أربعة يحذر منها التحريف التعطيل التكييف التمثيل .

(بل قولنا قول أئمة الهدى) : قولنا في صفات ربنا وفي الدين كله هو قول أئمة الهدى والله تعالى { والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان } وقال تعالى { ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى } فالناظم يقول قولنا قول أئمة الهدى ، قولنا الذي ندين الله به ونعتقده هو قول أئمة الهدى من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان ثم يثني على من وفق على هذا المسلك ويسير في هذا المسار قال :

طوبى : أي الجنة أو الثواب العظيم .

(لمن بهديهم قد اهتدى) : والله قال { الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مئاب }

طوبى لمن وفق للاهتداء بهدي السلف جعلنا الله جميعا كذلك ، لما نتهى من شرح هذا النوع قال :

وسم ذا النوع من التوحيد توحيد إثبات.....

سم أي يا طالب العلم والحق **ذا النوع** أي هذا النوع الذي شرح لك في الأبيات المتقدمة من التوحيد أي من نوعي التوحيد ، فسمي ذا النوع من التوحيد **توحيد اثبات** أيضاً سمه توحيد المعرفة وان شئت سمه توحيد العلمي وان شئت سمه توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات .

بلا ترديد : قل ذلك قولاً جازماً ولا تتردد .

قد أفصح الوحي المبين عنه فالتمس الهدى المنير منه

هذا البيت جميل جداً يبين فيه –رحمه الله– أن هذا التقسيم أو هذه الأقسام للتوحيد من أين أخذت ؟ قال : (**قد أفصح الوحي المبين عنه**) هذه أقسام التوحيد أفصح الوحي عنها ، فأقسام التوحيد أخذت من التتبع والاستقراء لكلام الله وكلام رسوله–صلى الله عليه وسلم–، وبهذا يُعلم أن أقسام التوحيد حقيقة شرعية ليس أمراً اصطلاحياً ، بعض أهل الأهواء يقول اقسام التوحيد ثلاثة هذا اصطلاحي اصطلح عليه بعض اهل العلم ولا مشاحة في الاصطلاح ، حتى يقول نحن نصطلح كذا وانتم اصطلحوا كذا ، الحق أن هذه الأقسام للتوحيد ليست اصطلاحية هذه حقيقة شرعية لهذا يقول الناظم : (**قد أفصح الوحي المبين عنه**) وبعض أهل البدع لاحظ كلام الناظم هنا وبعض أهل البدع يقول أول من قال بأقسام التوحيد هو ابن

تيمية ، فانظر الفرق إلى من هم على بصيرة في دين الله ، ومن هم على ضلال والعياذ بالله ، يكفيك في أقسام التوحيد الثلاث أن تقرأ فاتحة الكتاب ، وأن تقرأ سورة الناس ، وهناك آيات في القرآن عديدة جمعت أقسام التوحيد كقوله-سبحانه وتعالى-{ رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا} هذه الآية جمعت أقسام التوحيد الثلاثة ، وهناك آيات كثيرة في القرآن جمعت أقسام التوحيد الثلاثة فالوحي أفصح عن هذه الأقسام و أبين الإفصاح .

فالتمس : أي اطلب ، **الهدى** : أي اصابة الحق الواضح البين ، **منه** : أي من الوحي .

لاحظ لا يحيل الشيخ على آراء أومنطقيات أو فلسفات يحيل على الوحي يقول التمس الهدى أي اطلبه من الوحي المبين ؛ كلام الله وكلام رسوله ثم يحذر -رحمه الله- :

لا تتبع أقوال كل ماردٍ غاوٍ مضل مارق معاند

احذر هؤلاء احذرهم أن يفتونك عما جاء من الحق ، وما أكثر المضلون لما بين لك ان تهتم بطلب الحق من الوحي حذرك قال :

لا تتبع أقوال كل مارد : الزائغ المنحرف عن الحق ، المشتد في ضلاله وباطله .

غاوٍ : أي في نفسه زائغ ومنحرف عن الحق والهدى .

مضلٍ : لغيره ، فهو في نفسه غاو مضل لغيره .

مارقٍ معاندٍ : مارق عن الحق ومعاند للحق لكلام الله ورسوله-صلى الله عليه وسلم-

ثم يبين -رحمه الله- بعد هذا الشرح البين والشرح الواضح يقول :

فليس بعد رد ذا التبيان مثقال ذرة من إيمان

ذا التبيان : أي هذا الأمر المبين لك الواضح الذي دلائله وبيانته وحججه كثير ساطعة بينه في كتاب الله

مثقال ذرة من الإيمان : من الذي يجرأ أن يرد كلام الله وكلام رسوله-صلى الله عليه وسلم- وأفصح الله عنه في كتابه وأفصح عنه رسوله-صلى الله عليه وسلم-في سنته ،من الذي يجرأ على رد ذلك إلا الذي ما عنده مثقال ذرة من إيمان { وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا } {فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً } .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد .